

o b e i k . c o m

الحرية الدينية
بين التوحيد والوثنية

obeikandi.com

التعريف بالحرية الدينية

الحرية الدينية أو حرية الاعتقاد أن يكون للإنسان الحق في اختيار ما يؤديه إليه اجتهاده في الدين، فلا يكون لغيره حق في إكراهه على ما يعتقده بوسيلة من وسائل الإكراه، وإنما يكون له حق دعوته إليه بالإقناع بدليل العقل، أو بالترغيب في ثواب الآخرة والتخويف من عقابها، وهذا لا يكون إلا بعد إقامة الدليل على أن هناك إلهًا قادرًا عالمًا حكيمًا يريد الخير للناس في دنياهم وأخراهم، ويبعث لهم رسلا يدلونهم على الخير الذي يريده لهم، رحمة بهم، وفضلا وكرمًا تكرم به عليهم، لأن هذا هو الذي يليق بكماله بعد خلقه لهم، فلو أنه تركهم سدى بعد خلقه لهم كان هذا غير لائق بكماله وحكمته، وكان خلقهم عبثًا تتنزه عنه ذاته.

وبهذا يدخل في الحرية الدينية حرية الدعوة إلى العقيدة، وحرية تبليغ رسالته تعالى للناس، ولا تقتصر على حرية اعتقاد المرء في نفسه، لأن من يرى رأيًا فيه خير للناس في دنياهم وأخراهم له حق دعوتهم إليه، بل يكون آثمًا إذا كتمه عنهم ولم يبلغه إليهم، ولم يعمل على نشره بينهم، ليبادلوه الرأي فيه، فإن كان خيرًا أجابوه إليه، وإن كان شرا دلوه على ما فيه من شر، دليلًا بدليل، وإقناعًا بإقناع، من غير أن يكون هناك سعي في فتنة تثير حربًا بين الناس، وتعمل على تفريق كلمتهم ونشر العداوة بينهم، فيصل الأمر بها إلى استحلال سفك الدماء، ومثل هذا ليس من الحرية في شيء، وإنما الحرية دعوة سلام بين الناس، ورسالة إخاء ووثام بينهم، فلا يصح أن يصل أمرها إلى ما يصاد دعوتها، فتقلب

من دعوة سلام إلى دعوة حرب، ومن أخذ الناس بوسيلة الإقناع إلى أخذهم بوسيلة الإكراه، وبهذا لا تكون حرية وأمنًا وصلاحًا، بل تكون استبدادًا وتخويفًا وفسادًا.

وإذا كنا بهذا نعطي للإنسان حق حرية الاعتقاد، وحق الدعوة إليه وتبليغه للناس، وإذا كنا أيضًا نحرم عليه اللجوء في دعوته إلى وسائل الإكراه، ونوجب عليه الاقتصار على وسيلة الإقناع، فإننا نعطي مع هذا حق الدفاع عن عقيدته إذا أريد فتنته عنها بالقوة، ليقابل القوة بمثلها عند القدرة عليها، ويدافع بقوته عن عقيدته من يريد فتنته فيها بقوته، وهذا حق طبيعي فيه تأييد للحرية الدينية عند الاعتداء عليها، لأن حق الدفاع عن العقيدة مثل حق الدفاع عن النفس، وهذا لأن عقيدة الإنسان جزء من ذاته، بل هي أثنى عليه من نفسه، فيكون حق الدفاع عنها أوجب من حق الدفاع عن النفس، ولهذا يستهين كثير من الناس ببذل نفوسهم في سبيل الدفاع عن عقيدتهم، وفي هذا أكبر دليل على أن عقيدتهم عندهم أثنى من نفوسهم، لأن العقيدة فيها سعادة النفس في دنياها وأخرائها، ولا قيمة للنفس بدون هذه السعادة.

الحرية الدينية بين التوحيد والوثنية

التوحيد والوثنية :

التوحيد دين الله الذى يأمر بعبادته وحده دون غيره من الآلهة التى يقيمها طغاة البشر من أنفسهم أو غيرها مما يمكن معه استعبادهم لهم واستبدادهم فيهم.

والوثنية دين طغاة البشر الذى يأمرهم بعبادتهم أو عبادة أوثانهم ليتمكنهم استعبادهم وتطويعهم لاستبدادهم.

وبهذا يكون التوحيد دين الحرية، وتكون الحرية الدينية فيه موفورة للناس جميعاً، لأن الله تعالى يفرض عليهم دينه رحمة بهم، ويرسل رسله به إرادة لخيرهم فى دنياهم وأخراهم، وهو فى هذا مستغن عن عبادتهم له، ومستغن عما فيها من صلاة وصوم وزكاة وحج وغيرها من أنواع العبادات، وإنما هى وسائل لمقاصد يعود نفعها عليهم، وما يكون فيها من ثواب أخروى فهو بفضل وكرمه لا بعبادتهم وأعمالهم، وما يكون عليها من عقاب أخروى فإنما يراد منه زجرهم عما فيه فسادهم، وليس فيه شىء من شهوة الانتقام التى تتنزه عنها ذاته ويتنزه عنها كماله عن كل نقص فى البشر.

وحينئذ تقوم الدعوة فى دين التوحيد على أساس الترغيب فى الثواب والترهيب من العقاب فى الآخرة، وليس فيهما شىء ينافى الحرية الدينية، وإنما فيهما هذه الدعوة الحرة ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾

[الآية ٤٦ من سورة فصلت] فمن شاء أخذ نفسه بالعمل الصالح فأحسن إليها، ومن شاء أخذ نفسه بالعمل السيئ فجنى عليها، وليس لأحد فى الدنيا إكراهه على عمل من الأعمال الصالحة بعقاب من عقاب الدنيا، اللهم إلا إذا كان تركه يضر بغيره فيها، وليس لأحد إكراهه على ترك عمل من الأعمال السيئة بعقاب من عقاب الدنيا أيضاً، اللهم إذا كان فعله يضر بغيره فيها، كالقتل والسرقه ونحوهما، لأن إكراهه على هذا بعقاب من عقاب الدنيا يرجع إلى ما فيه من مصلحة الناس فيها، وليس فيه شيء من الاعتداء على الحرية الدينية.

أما الوثنية فإنها تكون دين الاستعباد والاستبداد من طغاة البشر لضعفائهم، ولا يكون فيها شيء من الحرية الدينية، لأن هؤلاء الطغاة يفرضون عبادة أنفسهم وأوثانهم على الناس، ولا يملكون من ثواب الآخرة وعقابها شيئاً، بل لا يريدون أن يعرف الناس شيئاً من ثواب الآخرة وعقابها، لئلا يتطلعوا إليهما دونهم ودون أوثانهم، وقد يعتقد بعضهم بثواب الآخرة وعقابها ولكنهم يجعلون أنفسهم وأوثانهم الوسيلة إلى الفوز بهذا الثواب وإلى النجاة من هذا العقاب، ليرضى الناس بعبادتهم وعبادة أوثانهم، وليخضعوا بها لاستبدادهم فيهم، وهم يعرفون فى قرارة نفوسهم عجزهم عن هذه الوسيلة، وإنما هو استغفال لجهل العامة، واستغلال لضعفها بإزاء قوتهم.

وحيث لا يملكون فى حمل الناس على عبادتهم وعبادة أوثانهم إلا ما يملكون من عقاب الدنيا، فيأخذون الناس إلى عبادتهم بوسائل الإكراه، ويعملون على استدامة عبادتهم لهم بحرمانهم من نور العلم، وحرمانهم من وسائل الحياة الكريمة، وبنشر ظلام الجهل فى ربوعهم ليرضوا بما هم فيه من الفقر المدقع، وبما فى أجسامهم من الأمراض المضنية، ولا يعملوا على التخلص من هذه الآثام التى تستلزمها عبادتهم

لهم، ويستلزمها استبدادهم فيهم، ومثل هذا يدخل في الاعتداء على حقهم في الحرية، ولا ينقص شيئاً عن الاعتداء عليها بحرب أو نحوه.

بين نوح وطغاة الوثنية:

كان نوح عليه السلام أقدم الأنبياء بعد آدم عليه السلام، وقد أرسله الله بعد أن طغى الفساد في الأرض، وقام فيها طغاة البشر يستعبدون ضعفاءهم، ويتخذونهم عبيداً لهم ولأوثانهم من دون الله تعالى.

فدعا نوح قومه من طغاة وغيرهم إلى عبادة الله وحده، ليرفع بها من شأن أولئك الضعفاء، ويزيل عنهم ما هم فيه من جهالة وشقاء وعناء، ولم يسلك أولاً في دعوته لهم إلا سبيل الإقناع، فاستجاب لدعوته أولئك الضعفاء، وكبر على طغاتهم أن يستجيبوا له، وكبر عليهم أن ينقذ أولئك الضعفاء من استعبادهم لهم ولأوثانهم، وأن يحررهم من استبدادهم فيهم، وطلبوا منه أن يتركهم لهم، ليعيشوا تحت سيطرتهم واستبدادهم.

فأبى نوح أن يتركهم لهم بعد أن آمنوا بدعوته، واكتفى بمن آمن به من الضعفاء، وترك أولئك الطغاة على ما هم عليه بعد أن بلغهم دعوته، لأن لا إكراه في الدين، كما قال تعالى علي لسانه في الآية - ٢٨ - من سورة هود ﴿ أَنْزَلْنَا مُكُؤْمَهَا وَانْتَمَّ لَهَا كَرهُونَ ﴾ فأبوا إلا أن يترك لهم أولئك الضعفاء، وإلا أن يطردهم عنه لهم، وأخذوا يعتدون عليه وعليهم في أنفسهم وفي أموالهم، وأخذوا يكرهونهم على الرجوع إلى وثنيتهم، ولا يقدرين ما أخذهم به نوح من حقهم في الحرية الدينية، ليأخذوه بحقه في الحرية الدينية أيضاً.

فهناك أنذرهم نوح بطوفان يرسله الله عليهم فيغرقهم به إن لم يتركوه هو ومن آمن به، وكانوا قلة لا تذكر بينهم، ولا قدرة لهم عليهم، فلا يكون

لهم إلا قدرة الله التي هي أقوى منهم، وقد عاقبهم الله بهذا الطوفان بعد أن أبوا إلا الاستمرار في الطغيان، ونجى منه نوحًا ومن آمن به من ضعفائهم.

بين إبراهيم وطغاة الوثنية :

أرسل الله إبراهيم عليه السلام إلى طغاة قومه من النماردة الذين استعبدوهم وادعوا الألوهية فيهم، وأقاموا لهم أصنامًا من الحجارة يعبدونها معهم، وكانوا يعبدون معها الكواكب من الشمس والقمر والنجوم أيضًا، ليستقيم لأولئك النماردة دعوة الألوهية، لأن من يرضى بعبادة مالا يعقل يرضى بعبادة من يعقل من باب أولى، وبهذا يرضخ الناس لطيغانهم واستبدادهم فيهم؛ وبما يأخذونهم به من وسائل الظلم والعسف؛ ويرضون بما يعيشون فيه من جهل ومرض وذل.

فأخذ إبراهيم يدعو نمرود عصره إلى عبادة الله تعالى؛ ويبطل له دعواه الألوهية لنفسه بوسائل الإقناع؛ كما جاء في الآية - ٢٥٨ - من سورة البقرة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِيّهِ أَنْ آتَيْنَهُ اللَّهَ الْمَلِكَ ﴾ ثم أخذ يبين فساد اتخاذهم للكواكب أربابًا بوسائل الإقناع أيضًا كما جاء في الآيات - ٧٦؛ ٧٧؛ ٧٨ - من سورة الأنعام: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَغَا كَوْكَبًا ﴾ الآيات؛ فلجأ بهذا وذاك معهم إلى وسائل الإقناع بالدليل العقلي؛ فمن شاء اقتنع به ومن شاء لم يقتنع؛ وهذه هي الحرية الدينية بأوسع معانيها؛ لأنها هي التي تكتفي في الدعوة بالدليل العقلي ونحوه من الأدلة التي تأخذ الناس إلى الإيمان بها من غير إكراه.

ولما لم ينفع فيهم الدليل العقلي لجأ معهم إلى دليل حسي يكون أقوى تأثيرًا فيهم؛ والدليل الحسي من الدليل العقلي أيضًا؛ ولا يمتاز عنه

إلا بأنه يعتمد على الحس مع العقل؛ أما الدليل العقلي فإنه يعتمد على محض العقل؛ وقد استعان بهذا الدليل الحسى مع أصنامهم؛ لأنها كانت فى متناول يده؛ وفى إمكانه أن يفعل فيها ما يدل حساً وعقلاً على أنها ليست بآلهة.

فاحتال فى خفية منهم حتى انفراد بأصنامهم فى بيت عبادتها؛ ثم أخذ فى تكسيرها حتى جعلها جذاذاً إلا صنماً كبيراً تركه ليستعين به فى دليله؛ ولا يجاوزه إلى الأخذ بشيء من العنف معهم؛ لأن العنف لا ينفع مع الطغاة بل يزيدهم طغياناً على طغيانهم.

فلما ذهبوا إلى أصنامهم وجدوها جذاذاً إلا ذلك الصنم الكبير. وأخذوا يبحثون عن من فعل هذا بها، فاتهموا إبراهيم به لأنه هو الذى يطعن فى عبادتهم لها، ثم أحضروه ليسأله عن من فعل هذا بها قبل الصنم الكبير الذى بقى من غير كسر؛ فكاد بعضهم يصدقه فيما ذكره من ذلك؛ وكان قد أمرهم أن يسألوها عن من فعل هذا بها إن كانت تجيب عن سؤالهم؛ فقالوا له: (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون)^(١)؛ وهناك أنكر عليهم عبادة ما لا يدفع عن نفسه شيئاً؛ ولا ينفعهم شيئاً ولا يضرهم.

ولاشك أن إبراهيم لم يجاوز فى الدعوة إليهم بهذا كله حد الإقناع ولم يأخذ إلى الإيمان بدعوته بوسيلة من وسائل الإكراه؛ وإذا كان قد كسر أصنامهم فقد فعله فى خفية تلتفماً منه فى الدعوة؛ ولما سأله عن من كسرها لم يجيبه بأنه هو الذى كسرها ليمضى معهم فى هذا التلطف، ولكنهم أسندوا إليه كسرها استنتاجاً من إنكاره عبادتهم لها.

(١) ي ٦٥ س ٢١ الأنبياء.

ولاشك أن إبراهيم لم يكن ليعمد إلى مثل ما فعله بعد أن رآه لم يفد فيهم أيضاً، وحينئذ لم يكن منه إلا أن تركهم وما يعبدون بعد أن بلغهم دعوته، لأن الله تعالى لم يكلفه إلا بتبليغ هذه الدعوة، وكان عليهم أن يتركوه حراً في دعوته كما تركهم في وثنياتهم، ولكن الوثنية دين طغيان يأبى إلا أن يأخذ الناس بوسائل القوة، فتأمروا فيما بينهم أن يحرقوه إن لم يترك دعوته إلى وثنياتهم، ولكن الله تعالى نجاه من النار التي أوقدوها له، فلم يكن منه إلا أن هاجر منهم إلى فلسطين، وكان له بها من الشأن ما كان.

بين موسى وطغاة الوثنية :

أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وكان قد طغى في الأرض، وادعى لقومه أنه ربهم الأعلى، فاتخذوه إلهاً لهم مع أوثانهم، وكان بنو إسرائيل قوم موسى قد هاجروا في عهد يوسف عليه السلام إلى أرض مصر، فاستعبدهم فرعون فيمن كان يستعبدهم، وخصهم بفرط ظلمه وطغيانه، فأرسل الله إليه موسى ومعه أخوه هارون ليدعواه أولاً إلى الإيمان به تعالى، وثانياً إلى أن يترك لهما بنى إسرائيل ليذهبا بهم إلى الأرض المقدسة التي هاجروا منها إلى مصر، ويتمتعوا فيها بنعيم الحرية التي سلبها منهم، وكاد يدخلهم بالقهر في وثنية قومه، وبهذا سلبهم الحرية السياسية والدينية معاً، وزرع في نفوسهم كثيراً من الرذائل الوثنية التي مكثت آثارها فيهم بعد أن نجاهم الله تعالى منه، ففسدت بها نفوسهم ولم تبقى على طهارتها الأولى، ولا تزال فاسدة إلى يومنا هذا.

ولما أرسل الله موسى وأخاه هارون إلى فرعون أمرهما أن يأخذاه بما لا يخرج بهما عن حد الحرية الدينية في الدعوة، كما جاء في الآية - ٤٤ - من سورة طه ﴿ فَقُولَا لَهُ دَقُّوْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ وهذه هي الدعوة بالتي هي أحسن، وهي الدعوة بالإقناع والدليل،

لا بوسائل القوة والإكراه، فأخذه بالدعوة فى هذا الحد، ولكنه أبى وطغى واستكبر، ولم يستجب لهما فى الإيمان بالله تعالى، ولا بإرسال قومهما بنى إسرائيل معهما إلى الأرض المقدسة التى وعدهم الله بها، ولم يؤثر فيه ما أيد الله بن موسى من معجزة العصا وآيات العذاب الدنيوى، لأن الله تعالى كان يرسل آيات العذاب عليه للموعظة والزجر، لا لأخذه إلى الإيمان بالقهر، فكان يرسلها إليه ثم يكشفها عنه، ولا يتركها مستمرة حتى يؤمن بها قهراً عنه.

وحين يئس منه موسى أراد أن يتركه ووثنيته، لأنه قد قام معه بما كلف به من تبليغ رسالته، وإنما وظيفة الرسل التبليغ لا أخذ الناس إلى الإيمان بالقوة والإكراه، فلم يكن من موسى إلا أن أسرى ببنى إسرائيل ليلا من مصر، وسار بهم إلى الأرض التى وعدهم الله تعالى بها، فلم يشأ فرعون أن يتركهم كما تركوه، لأن الوثنية الطاغية تأبى إلا أن تأخذ الناس بالإكراه، وإلا أن تجحد حقهم فى الحرية الدينية، وقد أدرك فرعون وجنوده موسى وقومه فى عبورهم البحر إلى الأرض الموعودة، فمكن الله تعالى لموسى وقومه أن يعبروا هذا البحر، وأغرق فيه فرعون وجنوده عقاباً لهم.

بين عيسى وطغاة اليهود والرومان :

أرسل الله عيسى عليه السلام إلى قومه بنى إسرائيل بعد أن أفسدوا فى الأرض المقدسة التى كتبها لهم فعاقبهم على فسادهم بتسليط طغاة الاستعمار عليهم، وكانت رسالة عيسى إليهم فى عهد الاستعمار الرومانى لبلادهم، ولم تكن رسالته إلا لتطهير نفوسهم من رذائل الوثنية التى علقت بها وانحرفت بهم عن الطرق القويمة فى علاقتهم بربهم، وفى علاقتهم بغير جنسهم من أجناس الأرض، إذ جعلوا جنسهم فوق جميع الأجناس،

وجعلوا دين الله ميزة لهم لا يشاركون فيها غيرهم، واستحلوا بهذا أكل أموال الناس بالباطل، فانتشروا فى الأرض لنهبها بالربا الفاحش وغيره من وسائلهم، ولا يزال هذا شأنهم إلى يومنا، مع ما حل بهم من أنواع المسكنة والذلة، لأن قلوبهم كالحجارة أو أشد قوة، فلا يؤثر فيها مصيبة تصيبها. ولا تأخذ منها موعظة تنفعها فى دنياها، وإنما هو المال والحرص عليه إلى حد العبادة له، وإلى حد استغلاله فى نشر الفساد بين الأجناس انتقاماً لما أصابهم منها. وتمهيدا لمسيحهم المنتظر الذى يسلطهم عليها.

فأخذهم عيسى بالحسنى، وقابل إساءتهم بالإحسان، وكانت شريعته تأخذ بإيثار العفو والصفح على مقابلة العدوان بالعدوان، حتى قال فى هذا قولته المشهورة - من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر - ولهذا أغضى عن الرومان واستعمارهم القاسى لقومه، وقد سأله بعضهم عن جزية قيصر عليهم يؤدونها له أو لا يؤدونها؟ فقال لهم: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله. لأنه كان يرى أن يصلح نفوس قومه أولاً، ومتى صلحت نفوسهم أنقذهم الله من استعمار الرومان وغيرهم.

ومكث عيسى فى حدود الدعوة التى لا افتئات فيها على الناس فى حقهم فى الحرية الدينية، ولكن اليهود لم يطبقوا منه هذه الدعوة التى لا افتئات فيها على حريتهم، وأرادوا أن يثنوه عنها بالإكراه، وأن يأخذوه بوسائل الوثنية فى القضاء على الحرية الدينية، فقدموه إلى الحاكم الرومانى ليصلبه بتهمة الإفساد فى الأرض، وقد استجاب طاغية الرومان لهم فأخذهم منهم ليصلبه، وهو اعتداء منهم جميعاً على ما كان له من حق فى تبليغ دعوته بمقتضى حق الحرية الدينية، وهو حق مقدس لا يصح الاعتداء عليه أصلاً.

بين محمد وطغاة الوثنية من العرب :

وكذلك كان شأن محمد ﷺ مع طغاة الوثنية من العرب، فلم يكن يريد إلا أن تكون له الحرية الدينية في تبليغ دعوته، فأبأها عليه هؤلاء الطغاة، واستعملوا كل قسوة معه ومع من آمن به لفتنتهم عن دينهم، مع أنه كان يقتصر على تبليغهم دعوته، ولم يحاول إكراههم عليها بوسيلة من الوسائل، وإنما أراد الحرية الدينية له ولهم، كما قال تعالى في متاركتهم من الآية - ٦ - من سورة الكافرون ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وقد صبر عليهم ما صبر إلى أن صار له أتباع يمكنهم ان يدافعوا عن انفسهم، وأن يدافعوا عن دينهم من يقاتلهم ليردهم عنه، كما جاء في الآية - ٢١٧ من سورة البقرة ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾ فأذن له في قتالهم دفاعا عن دينه، ومثل هذا لا يعد إلا قتالا في سبيل الحرية الدينية، وجهادا مقدسا لرفع أعلامها في العالم، ونستطيع أن نحكم بأنه أول جهاد من نوعه في تاريخ البشر.